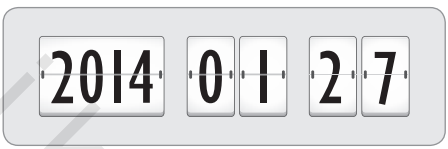

2014 01 27

بـدأت هيـلاري تقـول: بعيـد تعلمهـا القيـادة، صـادفـت تشلسـي وثلـة مـن صديقاتهـا عاكفـات علـى مناقشـة أيـن كـن سـيتقدمن بطلبـات الانتسـاب إلى الكليـة. فكـرت: مـاذا؟ حـان وقت ذلك؟ بالأمـس القريب جـدًّا كانت في حضني ونقـرأ القطـة في القبعـة (The Cat in the Hat) معًـا. ليـت تلـك الأيـام تعود مـن جديـد! باتـت بطـولي ومن الصعـب إجلاسـها في حضني. رغـم الألم الذي شـعرت به إزاء احتمال مغادرتها للبيت، صممت على إخفاء مشـاعري راجية أن يقـع اختيارها على إحـدى الكليات القريبة بما يمكننا – أقله – من قضاء العطل الأسبوعية معًا.

تعقد مدرسـة أصدقاء سـيدول أمسـية جامعية كل سـنة تدعـو إليها خطباء مؤهلين يتولون مناقشة أحوال الكليات المختلفة وعمليات الانتساب إليها، بل وأنا رافقنا تشلسي إلى الأمسية للوقوف على ما يمكن الاطلاع عليه، في طريق العودة إلى البيت الأبيض بدت تشلسي غارقة في تفكير عميق، أخيرًا أعلنت أنها راغبة في الذهاب إلى ستانفورد، ناسية النصيحة الواردة في الكتب جميعها التي كنت قد قرأتها حول كيفية تجسيد الأم المثالية، صرخت بأعلى صوتي «ستانفورد؟!

obeikandl.com

هل أنت مجنونة؟ إنها على مسافة ثلاثة آلاف كيلومتر من هنا، لن نتمكن أبدًا من زيارتك!».

بادر بل- ذلك الرجل الحكيم أحيانًا- إلى قرص ذراعي وهو يقول لها إنها تستطيع أن تذهب إلى أي كلية توافق على قبولها، أدركت- بالطبع- أنه كان محقًّا، أما أنا فلم أكن بعد جاهزة لقبول فكرة ابتعادها عني، غير أني كنت واثقة من أنني سأكون مسرورة لسرورها هي إذا ما رحبت بها الكلية التي تختارها، ضغطت على أسناني وصممت على قضاء أطول وقت يمكن أن تتيحها لي قبل ذلك.

عند الكلام عن روح التمرد في أثناء مراهقة تشلسي، تعين علي أن أضحك وأنا أقرأ في الصحف نبأ ترشحها لنيل جائزة الصندوق القومي للصحة الإسبانية (إن إتش إتش أف/NHHF) في مهرجان جوائزه السنوية بنيويورك. بحسب ما جاء في الصحافة كانت تشلسي جديرة بالثناء لـ «تحريض البالغات صغيرات السن، لاسيما اللاتينيات، على التحلي بالاستقلال وتثقيفهن في اتخاذ القرارات السليمة حول أنفسهن». و(الاستقلال) ليست الكلمة الدقيقة التي أميل إلى اختيارها لوصف سلوك مراهقتي المتشامخ.

كنت عاكفة على قراءة قصص عن صدمات عاناها آباء وأمهات ودعوا أبناءهم وبناتهم المغادرين إلى الجامعات؛ إحدى الأمهات عادت إلى المدينة الجامعية لاختلاس نظرة أخيرة إلى ابنها فوجدت نفسها متسللة إلى ممر مهجعه مثل جاسوسة في أحد الأفلام البوليسية (أفلام بي). ثم كان هناك ذلك الأب الذي لم يكن يستطيع النوم ليلًا لتوجسه من ألا يكون ابنه حاصلًا على ما يكفي من النوم، ما أشبهه ببل! وأم مجنونة لم تطق مسح الرسائل الهاتفية الواردة من ابنتها الغائبة حتى بات جهازها مفرط الامتلاء الفوضوي فتعطل، ما أدى إلى حرمانها سماع صوت ابنتها حين كانت تريد فعلًا أن تتكلم، لعل الأسوأ من الجميع هم الآباء والأمهات الذين كانوا يتجولون في الغرف

الشـاغرة، حيث كان أولادهم ذات يوم يعزفون الموسـيقى بصخب يصم الآذان، لستُ على تلك الدرجة من السوء، أما بل فقد يروي قصة مختلفة.

كنت أرتاح كثيرًا عند الاطلاع على هذه القصص لأن البؤس يحب البؤس، وكنت بالفعل أخاف لحظة اضطرارنا، بل وأنا لوداع تشلسي إلى ستانفورد، وأنا تلـك التـي بكت حين غادرت إلـى الحضانة، نعم أعرف أن علـى الآباء والأمهات الصالحين أن يفرحوا لإنجازات أولادهم، وتملؤهم النشـوة إزاء الحياة الرائعة التـي تنتظرهـم، تلك هي المشـاعر التي راودتني في لحظـات النضج، أما معظم الوقـت فقـد بقيت– للأسـف– متسـائلة عما جعلني أسـمح لهـا بتخطي الصف الابتدائي الثالث.

تعاطفـت مـع الأمهـات الأخريـات المعانيات قلـق الانفصال قبـل الأوان إبان شـهر مـن الإعـداد المكثـف في عـرف أصدقاء سـيدول المقدس: عرض الأم — البنـت. أمهـات طالبات السـنة الثانوية الأخيرة في سـيدول يشـاركن في أمسـية (سكيتشـات) ساخرة تسلِّي بناتهن الموشكات على التخرج، التحقت بركب عدد من أمهات صديقات تشلسـي في تقديم سلسـلة من الطرائف الساخرة أدت فيها كل منـا دور ابنتهـا، بالغت في تكرار دورات راقصة الباليه وفي الكلام اللانهائي بالهاتـف عن مشـاريع الخـروج، ضحـك الجمهور كثيـرًا، في المشـهد الافتتاحي قمنـا نحـن الأمهـات بلـف أنفسـنا بصحائـف ورقية وكأننـا فرقة توغـا، وغنينا أغنيـة أظـن أني قـادرة علـى الطـيران! (I Belive I Can Fly!)، لـن أفاجأ إذا اسـتطاعت تشلسـي فعـل ذلك؛ هي قادرة على فعل الأشـياء الأخـرى كلها. رغم خوفي من خشبة المسرح، تمكنت من الاهتداء إلى هاوية التمثيل في أعماقي، إلا أن صوتي– لحسن حظي وحظ تشلسي– غرق وتلاشى في بحر الأصوات الأكثر موسيقية لأمهات أخريات في فقرة الافتتاح.

حفل تخرج تشلسـي الثانوي كان مثل حفلات أخرى كثيرة حضرتها مع فرق رئيس واحـد: ألقى في الحفل رئيس جمهورية الولايات المتحـدة خطابًا، دفعني

بل إلى البكاء حين طلب إلى الخريجات إدراك أن من شأن آبائهن وأمهاتهن أن يبدوا حزانى قليلًا أو حتى يتصرفوا بقدر من الغرابة، أذكر جيدًا أنه قال: «نتذكر كما ترون، أيامكم الأولى في المدرسة مع النجاحات والإخفاقات جميعها التي كانت بين تلك اللحظة والآن، وعلى الرغم من أننا تعهدناكم لإيصالكم إلى هذه اللحظة ونحن فخورون جدًّا بكم، فإننا نبقى متطلعين إلى وضعكم في أحضاننا مرة أخرى كما سبق لنا أن فعلنا عندما كنتم صغارًا، وقراءة مادلين (Madeline) أو الآلة الصغيرة القادرة (The Little Engine That Could) على مسامعكم». ومسح دمعة، كما فعلت أنا والأمهات والآباء جميعهم الذين حضروا الحفل.

بعد تخرج تشلسي بوقت أقصر مما ينبغي، دقت ساعة مغادرتنا نحن الأمهات والآباء لمدينة صغارنا وصغيراتنا الجامعية، ومبادرة الصغيرات والصغار هؤلاء إلى إعادة ترتيب غرفهم (هن) وحوائجهم (هن) بحسب أهوائهم (هن). بعد أسابيع من تصور لحظة الفراق، كنت قد صلَّبت نفسي لمواجهة هذه المحنة، وأصبحت شبه جاهزة لمغادرة ستانفورد، أما بل فلم يكن قد فعل، فجاء مسكونًا بقلق شديد حول مغادرة تشلسي.

فيما يخص تشلسي، كانت أكثر من مستعدة لمغادرتنا، ولأن ستانفورد تتأخر كثيرًا في الافتتاح خريفًا عن جل المدارس، كانت قد سمعت من كثير من صديقاتها وأصدقائها الطلاب والطالبات عن مفاجآت الحياة الجامعية الإيجابية منها والسلبية، بما جعلها شديدة التوق للبدء. حاولت منعها من رؤية النظرات الحزينة في عيون أبويها.

رجوت أن نكون قد منحناها الأشياء المهمة فعلًا التي تحتاجها البنت لتنجح في الكلية، وتكون هي قد أقفلت بإحكام على وجدانها الخاص في داخلها. (واصلت هيلاري): مثل جل الأمهات مهجوسة فعلًا حول ما إذا كانت ستربي

صديقـات وأصدقـاء جيديـن يحبونها كرمى لعينها هي لا بسـبب هوية ومنصب أبويها، وما إذا كانت ستحب حصصها الدرسية وستتناول الوجبات المناسبة.

غير أنني كنت، خلافًا للأمهات الأخريات جميعن، مشغولة البال إزاء الأمن والخصوصية اللذين كانا يلازمان كون المرء ابنة رئيس الجمهورية. بل وأنا كنا واثقـين مـن أن تشلسـي كانت مؤهلـة لتعتني بنفسـها تلقائيًّا؛ كانـت على الدوام إنسانة متوازنة، وعاقلة، وجيدة الانضباط، غير أن مشكلات العالم وعقده غير قابلـة للتكهـن، وما كنا لنسـتطيع تحصينها ضدها كما فعلنا طوال مدة عيشـها معنا.

obeikandl.com